الفصل الثاني

الأطروحات الغربية في توصيف علاقة الغرب بالإسلام

عرض ونقد

الدكتور

إبراهيم بن ناصر الناصر

باحث ومفكر سعودي

الأطروحات الغربية في توصيف علاقة الغرب بالإسلام
عرض ونقد

الدكتور/ إبراهيم بن ناصر الناصر(*)

بعد سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩م، والذي أصبح يرمز إلى سقوط المعسكر الشرقي، وإنهاء الحرب الباردة، وتحقيق انتصار للغرب على غريمه الشرقي؛ أعلنت الليبرالية الغربية انتصارها التاريخي على المعسكر الشرقي، لا في المجال السياسي فقط؛ وإنما في مجال الفكر.

وكان من أبرز ما ظهر في الغرب معبراً عن هذا الانتصار في دائرة الفكر والواقع، أو النظرية والتطبيق، مقالة فوكوياما - وهو مفكر أمريكي من أصل ياباني - بعنوان (هل انتهى التاريخ؟)، والتي فصلها في كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير). وقد أثارت جدلاً وردود أفعال ومناقشات واسعة في العالمين الغربي والإسلامي؛ بين مؤيد ومعظمهم غربيون، ومعارض ومعظمهم مسلمون.

ولم تهدأ هذه المناقشات إلا على وتيرة جدل آخر حول أطروحة أخرى لكاتب أمريكي آخر من أصل يهودي هو صمويل هانتنجتون باسم (صدام الحضارات)، والتي فصلها في كتابه (صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي)، والتي تعارض الأطروحة الأولى من وجه، وتلتقي معها من وجه في فكرة الصدام.

وهذا البحث هو في بيان الموقف من هاتين الأطروحتين؛ خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر؛ من خلال عرض الأفكار، ثم بيان التناقضات والمغالطات والموافقات.

وقد عقبت بعد ذلك بدعوى ثالثة لكاتب بريطاني بعنوان (خرافة المواجهة)، وهي رؤية علمانية صرفة، من أجل بيان سوق الأفكار الذي يعج بالرؤى والطروحات المتناقضة والمتوافقة، وأن الغرب عند تفكيكه سيتبين أنه ليس وحدة واحدة.

أولاً: نهاية التاريخ[١] (End of history) - فرانسيس فوكوياما[٢]:

عرض لأهم أفكار الأطروحة:

بعد أن انتصرت الليبرالية على بقايا الاستبداد، النازية، والفاشية، و الماركسية، والتي كانت تهدد بالمحرقة

(*) باحث ومفكر سعودي.

(١) هي محاضرة ألقيت في جامعة شيكاغو، ونشرت في مجلة: summer,1989 national intrest، العدد الأول، ونشرها السيد ياسين، في مقدمة التقرير الاستراتيجي العربي ١٩٨٩م كنموذج للمحاولة الرأسمالية الجديدة للتنظير، كما نشرت مترجمة عن دار البيادر في القاهرة ١٩٩٠م، وقد فصل الباحث، أطروحته في كتاب (نهاية التاريخ وخاتم البشر)، والذي نشره مركز الأهرام للترجمة والنشر، ترجمة حسين أحمد أمين.

(٢) نائب رئيس دائرة التخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأمريكية، باحث سابق في مؤسسة راند، وهو أمريكي من أصل ياباني.

النهائية بالحرب النووية؛ يبدو أن التاريخ أتم دورة كاملة بهذا الانتصار النهائي للديمقراطية الليبرالية الغربية؛ حيث تم استنزاف تام للبدائل الأساسية لليبرالية الغربية، وقد تمثل ذلك بما يلي:

١ ـ تغير المناخ الفكري لأكبر بلدين شيوعيين في العالم (روسيا والصين)، وظهور حركات إصلاح أساسية فيهما.

٢ ـ الانتشار الحاسم لحضارة الغرب الاستهلاكية في العالم خاصة الدول الكبرىٰ والأيديولوجية.

فما نشهده ليس مجرد نهاية الحرب الباردة بل نهاية التاريخ ذاته؛ أي نقطة النهاية لتطور البشرية الأيديولوجي، وانتشار الديمقراطية الليبرالية الغربية في العالم كله باعتبارها الشكل النهائي للحكومة البشرية؛ وذلك لأن انتصار الليبرالية حدث في المقام الأول في مجال الأفكار والوعي، ولم يصبح بعد انتصاراً تاماً في العالم الواقعي.

تنظير:

وحتى نفهم كيف حدث ذلك؛ ينبغي أن ننظر أولاً إلى بعض القضايا النظرية المتعلقة بطبيعة التغيرات التاريخية، يقول فوكوياما:

ففكرة (نهاية التاريخ) روّج لها ماركس باعتبار أن التطور التاريخي سينتهي إلىٰ تحقيق مجتمع البروليتاريا، وقد اقتبس ماركس الفكرة من أستاذه هيجل (ت: ١٨٣١م) أحد الفلاسفة الألمان الذي أخذ عنه ماركس فكرة الديالكتيك، وتتلخص فكرة هيجل عن التاريخ فيما يأتي:

١ ـ البشرية مرت بسلسلة من مراحل الوعي، من البدائية إلىٰ الحاضر، وهذه المراحل كونت أشكالاً من التنظيم الاجتماعي؛ مثل: المجتمع القبلي، ومجتمع ملاك العبيد، والمجتمع الثيوقراطي، إلىٰ أن وصل إلىٰ المجتمع الديمقراطي القائم علىٰ المساواة.

٢ ـ ومن حيث الواقع يرىٰ هيجل أن التاريخ انتهىٰ في عام ١٨٠٦م عندما دحر نابليون مملكة بروسيا؛ حيث انتصرت مُثُل الثورة الفرنسية، وبشر بامتداد الدولة التي تجسد مبادئ الحرية والمساواة إلىٰ أنحاء العالم.

ثم تبع هيجل أحد الفلاسفة الروس المقيمين في باريس وهو «إلكسندر كوجيف» (ت: ١٩٦٨م) أستاذ «جان بول سارتر»، والذي تأثر بفكرة هيجل ونشر فكره من خلال كتابه الشهير (مقدمة لقراءة هيجل)، حيث يرىٰ أن التاريخ انتهىٰ في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ حيث وجدت الدولة المتجانسة الليبرالية والديمقراطية متجسدة في بلدان أوروبا الغربية بعد الحرب.

وفي الدولة المتجانسة الجامعة عند كوجيف تكون جميع التناقضات السابقة قد حلت، وجميع الاحتياجات

البشرية قد لُبِّيت، ولا يكون هناك نزاع على قضايا كبيرة، ومن ثم ليس هناك حاجة إلى جنرالات أو ساسة، وإنما يبقى في الأساس النشاط الاقتصادي.

مثالية هيجل:

اعتمد فوكوياما في بناء نظريته في نهاية التاريخ على فلسفة هيجل المثالية، والتي تتلخص فيما يأتي:

١ ـ يرى هيجل أن التناقضات التي تدفع عجلة التاريخ توجد مثل كل شيء في مجال الوعي البشري؛ أي على مستوى الأفكار، وبمعنى آخر: «الأيديولوجيا» التي لا تقتصر على العقائد السياسية العلمانية، بل تشمل الدين والثقافة، ومجموعة القيم المعنوية التي تشكل أساس المجتمع.

٢ ـ أن التمييز بين العالمين المثالي (الفكري) والواقعي (المادي) هو تمييز ظاهري، وقد عبَّر هيجل عن هذه الفكرة بالعبارة المشهورة التي أوردها في مقدمته لكتاب (فلسفة التاريخ) وهي: «كل ما هو منطقي واقعي، وكل ما هو واقعي منطقي»، وأن الثنائية بين العالمين ظاهرية.

٣ ـ أن جميع أشكال السلوك الإنساني في العالم المادي ومن ثم التاريخ البشري تنبع من حالة سابقة في الوعي، وقد يتخذ شكل الدين، أو شكل عادات ثقافية أو معنوية، ولا بد أن يتجلى في العالم المادي في الأمد الطويل، بل إنه يشكل العالم المادي على صورته، فالوعي سبب وليس نتيجة؛ ولذا فإن التاريخ الحقيقي الكامن وراء ذلك الخليط من الأحداث الجارية الظاهرية إنما هو تاريخ الأيديولوجيا.

٤ ـ أن الإنسان هو نتاج لبيئته التاريخية والاجتماعية، وليس محكوماً بالخصائص الطبيعية الثابتة على نحو ما كان يؤكده أصحاب نظريات الحق الطبيعي السابقين لهيجل.

٥ ـ أن الإنسان يستطيع أن يسيطر على بيئته الطبيعية، وأن يغير هذه البيئة باستخدام العلم والتكنولوجيا، وأن التاريخ يصل في النهاية إلى لحظة مطلقة ينتصر فيها شكل رشيد ونهائي للمجتمع والدولة.

ولقناعة فوكوياما بأفكار مدرسة هيجل راح ينتقد ماركس الذي فسر مثالية هيجل تفسيراً عكس فيه الأولوية بين الواقعي والمثالي عكساً تاماً، حيث استبعد مجال الوعي بكامله (الدين والثقافة والفلسفة)، واعتبره بناء فوقياً يتحدد بأسلوب الإنتاج المادي السائد، ثم انتقد ميله للأخذ بالتفسيرات المادية للظواهر السياسية والتاريخية، كما عرَّض بكتاب (قيام الإمبراطوريات وسقوطها) لبول كندي؛ لأنه يعزو اضمحلال الدول الكبرى إلى مجرد الإفراط في التوسع الاقتصادي.

كما وصم مدرسة جريدة «Wall street» للحتمية المادية بالانحراف؛ لأنها تقلل من أهمية الأيديولوجيا والثقافة، وترى أن الإنسان هو في الجوهر فرد منطقي يسعى إلى تعظيم الربح. ثم ذهب يثبت تهافت هذه الأفكار المادية مستعيناً بعالم الاجتماع الألماني «ماكس فيبر» (ت: ١٩٢٠م)، في كتابه: (الأخلاق البروتستانتية

وروح الرأسمالية) الذي لاحظ فيه الفارق في الأداء الاقتصادي بين المجتمعات البروتستانية والمجتمعات الكاثوليكية، والتي لخصها بقوله: «البروتستانت يأكلون جيداً، والكاثوليك ينامون جيداً»، حيث يرىٰ أن الرأسمالية تملك روحاً خاصة، وموقفاً أخلاقياً عقلانياً، وأن هذه الروح لا توجد إلا في أوروبا الغربية، ولم تكن موجودة بعد القرن السادس عشر إلا في البلاد البروتستانية، أو بين الطوائف البروتستانت في الدول الكاثوليكية، ويرىٰ «فيبر» ضد ما رأىٰ ماركس؛ أن أسلوب الإنتاج المادي ليس هو الأساس، بل هو نفسه بناء فوقي تمتد جذوره إلىٰ الدين والثقافة. ثم استدل فوكوياما بالنجاح الاقتصادي لبعض الدول الآسيوية، وعزىٰ ذلك إلىٰ التراث الثقافي لتلك المجتمعات كأحد أهم الأسباب للنمو الاقتصادي الرأسمالي.

وخلص إلىٰ أنه لا يوجد نظرية معاصرة محترمة للتنمية الاقتصادية تعالج بجدية مسألة الوعي والثقافة؛ بوصفهما المهد الذي يتشكل فيه السلوك الاقتصادي.

والخلاصة عند فوكوياما أنه يعتقد أن الاقتصاد الليبرالي يعزز السياسة الليبرالية، وأن كلاً من الاقتصاد والسياسة يفترض حالة مسبقة ومستقلة من الوعي، وهي التي تجعلهما ممكنين، وهذه الحالة من الوعي التي تسمح بنمو الليبرالية يبدو أنها تستقر بالصورة التي يتوقعها المرء عند نهاية التاريخ؛ إذا كانت تعززها الوفرة التي يحققها اقتصاد حر؛ بحيث يتكون محتوىٰ الدولة المتجانسة الجامعة من ديمقراطية ليبرالية في المجال السياسي، مقترنة بسهولة الحصول علىٰ أجهزة الفيديو والاستريو في الاقتصاد.

ثم يسأل فوكوياما: هل بلغنا حقاً نهاية التاريخ؟

وقبل أن يقرر ذلك يسأل: هل يوجد تناقضات أساسية في الحياة البشرية لا يمكن أن تسوىٰ في إطار الليبرالية الحديثة، ويمكن تسويتها في ظل هيكل سياسي اقتصادي بديل؟ ثم يُذكِّر بالتحدي الفاشي (النازي)، وبعده التحدي الشيوعي، ورأىٰ أن هذين التحديين قُضي عليهما؛ حيث هُزمت الأفكار التي قامت عليها هذه الفاشيات والشيوعيات، بالإضافة إلىٰ الهزيمة المادية لها بواسطة حربين عالميتين؛ إحداهما ساخنة والأخرىٰ باردة، فيقول عن التحدي الأول: إن بقايا مستشارية الرايخ، والقنبلتين الذريتين علىٰ هيروشيما ونجازاكي قتلت هذه الأيديولوجيا علىٰ صعيد الوعي، كما قتلتها علىٰ صعيد الواقع المادي. كذلك هُزمت الثانية ـ وهي الأخطر ـ من خلال التغييرات الجذرية في الموطن الأصلي للبروليتاريا العالمية، وهي الشيوعية التي قال منظرها ماركس يوماً ما مستنداً إلىٰ فلسفة هيجل: «إن المجتمع الليبرالي (الرأسمالي) يحتوي علىٰ تناقض أساسي لا يمكن تسويته داخل إطاره، وهو التناقض بين رأس المال والعمل». كذلك الليبرالية بدأت تغزو أعرق الحضارات في آسيا وهي الصين؛ من خلال الإصلاحات الاقتصادية التي ضاعفت النمو الاقتصادي والاستهلاكي، وأن القيادة الصينية بدأت بالإصلاح الاقتصادي دون السياسي تجنباً لنتائج بروستاريكا «جورباتشوف» في الاتحاد السوفييتي.

ويرى فوكوياما أن القضية الطبقية حلت في الغرب حلاً واقعياً ناجحاً بالنزعة إلى المساواة بين الناس في المجتمع اللاطبقي الذي أراده ماركس، ونفى أن يكون سبب وجود أغنياء وفقراء في أمريكا مرتبط بالقيم القانونية والاجتماعية في المجتمع الذي يبقى في جوهره قائماً على الإيمان بالمساواة وتوزيع الثروة، مع التمسك بالخصائص الثقافية والاجتماعية للفئات التي يتألف منها، والتي هي بدورها التراث التاريخي للأوضاع السابقة على الأوضاع العصرية، وعليه فإن فقر السود في أمريكا ليس نتيجة حتمية لليبرالية؛ بل هو تراث العبودية والعنصرية الذي استمر لفترة طويلة بعد إلغاء الرق رسمياً.

وبعد أن يسلم فوكوياما بموت كل من التحدي الفاشي والشيوعي لليبرالية؛ يذكر منافسين أيديولوجيين آخرين؛ هما الدين، والقومية. ففي قضية الدين يرصد ازدهار الأصوليات الدينية في الفترة الأخيرة في المجتمعات الإسلامية والمسيحية واليهودية، وهذا قد يبرز عند البعض أن هناك خواء روحياً في المجتمعات الاستهلاكية الليبرالية، وأنه عيب أكيد في الليبرالية ولا يمكن إصلاحه عن طريق السياسات. ثم ينبه على أن الليبرالية الحديثة كانت نتيجة تاريخية لضعف المجتمعات القائمة على الدين، حيث لم تحقق الحد الأدنى من الشروط اللازمة للسلم والاستقرار، ولم تتفق على طبيعة الحياة الطيبة، وليس في العالم المعاصر غير الإسلام الذي يطرح الدولة الثيوقراطية كبديل سياسي لكل من الليبرالية والشيوعية، لكنه يقول إنها لا تلقى قبولاً واسعاً لدى غير المسلمين، ويصعب الاعتقاد بأن تلك ستكسب أهمية عالمية. أما الدوافع الدينية الأخرى والأقل تنظيماً فقد اكتفت بنطاق الحياة الشخصية الذي تسمح به المجتمعات الليبرالية.

أما القومية وغيرها من أشكال الوعي العرقي والإثني؛ فقد نشبت حربان عالميتان مدمرتان في القرن العشرين نتيجة لأسباب ترجع جذورها إلى القومية، وإذا كانت أُخمدت في أوروبا فإنها ما زالت قوية للغاية في العالم الثالث. ثم يؤكد فوكوياما إمكانية حل هذا التناقض داخل الليبرالية؛ وذلك لأن القومية ليست ظاهرة واحدة وإنما عدة ظواهر تمتد من الحنين الثقافي الهادئ حتى عقيدة «الاشتراكية الوطنية» ذات التنظيم الشديد والتعبير المدوّي، وهذا الشكل الأخير هو الذي يمكن أن يمثل تحدياً وبديلاً أيديولوجياً لليبرالية أو الشيوعية، لكن الغالبية الساحقة من الحركات الوطنية (القومية، والإثنية) لا تتجاوز الرغبة السلبية للاستقلال عن مجموعة أخرى أو شعب آخر، وما يوجد من نزاع داخل المجتمعات الليبرالية فإنه لا ينبع من كونها ليبرالية؛ وإنما بسبب أنها ليبرالية غير كاملة؛ حيث يفرض على أناس أن يعيشوا في ظل نظم سياسية غير نيابية لم يقوموا باختيارها.

ما هو تأثير انتهاء التاريخ على العلاقات الدولية في العالم الخالي من الأيديولوجيا؟

يجيب فوكوياما بأن الجانب الأكبر من العالم الثالث ما زال يتخبط في أوحال التاريخ، وسيكون ساحة للنزاع خلال سنوات طويلة مقبلة، لكن ماذا بالنسبة إلى الدول الأكبر حجماً والأكثر تقدماً، والتي ترسم الجانب الأكبر من السياسة العالمية؟ الجواب الأكثر شيوعاً هو أنه لن تكون هناك فوارق كبيرة؛ لأنه تكمن تحت جلد

الأيديولوجيا مصالح وطنية للدول الكبرىٰ تدعو إلىٰ مستوىٰ مرتفع من التنافس والنزاع بين الأمم، وهناك مدرسة أكاديمية واسعة الانتشار في العلاقات الدولية ترىٰ أن النزاع في بنية النظام الدولي ذاته، وهذه المدرسة تأخذ بنظرية المفكر السياسي الإنجليزي «توماس هوبز» (ت: ١٦٧٩م) للعلاقات الدولية، والتي تفترض أن العدوان وانعدام الأمن كانا دائماً من الخصائص الشائعة في المجتمعات البشرية، وليسا ناتجين عن ظروف تاريخية محددة، ويرىٰ أولئك أن العلاقات في العالم المعاصر ـ إذا خلا من الأيديولوجيا ـ ستكون شكلاً من العلاقات السائدة في أوروبا في القرن التاسع عشر.

يرد فوكوياما علىٰ هذا الرأي المنطلق من أن الأيديولوجيا بناء فوقي يستند إلىٰ أرضية من المصالح الدائمة للدول الكبرىٰ بأن العكس هو الصحيح؛ حيث تحدد الدولة مصالحها الوطنية علىٰ نوع الأساس الأيديولوجي المسبق؛ مثل السلوك الاقتصادي الذي تحدده حالة مسبقة من الوعي، بل إن فوكوياما يرىٰ أن السلوك التوسعي والتنافس بين الدول الأوروبية في القرن التاسع عشر علىٰ أساس مثالي أيديولوجي أيضاً، كان وراء ذلك السلوك، لكنها لم تكن واضحة وضوح عقائد القرن العشرين؛ نظراً لإيمانها بمشروعية الإمبريالية؛ أي بحق أمة في أن تسيطر علىٰ أمم أخرىٰ دون اهتمام برغبات المحكومين، وقد اختلفت مسوّغات الإمبريالية (الاستعمار) من أمة إلىٰ أخرىٰ، وذلك من الإيمان الفج بمشروعية القوة؛ خاصة مع غير الأوروبيين إلىٰ مسؤولية الرجل الأبيض ورسالة أوروبا التبشيرية في إتاحة الفرصة للآخرين للاطلاع علىٰ ثقافة أوروبا وحضارتها.

وباختصار كان الأساس الأيديولوجي المستخدم للإمبريالية أن كل بلد متقدم يعتقد أنه من المقبول أن تحكم الحضارات الأرقىٰ الحضارات الأدنىٰ، وكان من آثار هذه الأيديولوجيا: الاستعمار لدول العالم الثالث، ونشوء الفاشيات في أوروبا، والحروب المدمرة.

لكن بعد الحرب العالمية الثانية لم يعد هناك إمبريالية، ولم يعد للوطنية الأوروبية ارتباط يذكر بالسياسة الخارجية، وكان أكثر الأشكال الوطنية تطرفاً لدىٰ دول أوروبا هي (الديجولية) التي اقتصرت مظاهرها بتأكيد الذات في مجالي الثقافة والمصالح السياسية، أما الحياة الدولية لذلك الجزء من العالم الذي وصل إلىٰ نهاية التاريخ؛ فكانت معنية بالاقتصاد أكثر من عنايتها بالسياسة أو الاستراتيجية إلىٰ حد بعيد، أما المؤسسات الدفاعية في الدول الليبرالية فهي من أجل وجود خطر خارجي من دول لديها أيديولوجيات توسعية صريحة، وما كان لها أن توجد بغيرها؛ وعليه فإن الصراع بين نظامين متعارضين لم يعد هو الاتجاه الغالب في العصر الراهن، وإنما الأهمية في المرحلة الجديدة هو تكوين الثروة المادية بمعدلات سريعة علىٰ أساس من العلم والتقنية، وتوزيع الثروة بشكل منصف، وحماية الموارد اللازمة لبقاء البشرية.

خلاصة أطروحة (نهاية التاريخ) عند فوكوياما:

أو نقطة النهاية في التطور الأيديولوجي للإنسانية، أو الصورة النهائية لنظام الحكم البشري كما يحلو لفوكوياما أحياناً.

من الضروري عند نهاية التاريخ: وجود الدولة المتجانسة الجامعة التي تحتوي على ديمقراطية ليبرالية في المجال السياسي؛ مقترنة بوفرة كبيرة من الاقتصاديات الليبرالية المتقدمة، والثقافة الاستهلاكية متعددة الأشكال التي يمكن الحصول عليها بسهولة؛ مطبقة المبدأين التوأم الحرية والمساواة.

ومن الضروري: ازدياد طابع السوق المشتركة للعلاقات الدولية، وتناقص احتمالات قيام صراع واسع النطاق بين الدول.

وليس من الضروري عند نهاية التاريخ: أن تصبح كل المجتمعات مجتمعات ليبرالية ناجحة؛ وإنما يكفي أن تكف عن ادعاءاتها الأيديولوجية بأنها تمثل مجتمعات بشرية مغايرة لليبرالية وأكثر رقياً.

كما أنه ليس من الضروري: انتهاء النزاعات الدولية في حد ذاتها؛ لأن العالم سينقسم عند تلك النقطة إلى جزء تاريخي وجزء انتقل إلى ما بعد التاريخ؛ بحيث يمكن أن ينشأ نزاع بين الدول التي ما زالت في إطار التاريخ بعضها بين بعض، وبينها وبين الدول التي وصلت إلى نهاية التاريخ.

ويمكن أن يكون هناك مستوى مرتفع ومتزايد من العنف الإثني، والوطني، والإرهاب، وحروب التحرر الوطني؛ حتى في بعض أنحاء العالم الذي وصل إلى ما بعد التاريخ؛ لأن هذه النزاعات لم تصل بعد إلى نهايتها.

وقد عبر عنها في كتابه بطريقة أخرى فقال:

(يبدو لي ـ أخيراً ـ أن الجنس البشري كما لو كان قطاراً طويلاً من العربات الخشبية التي تجرها الجياد متجهة إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بأسرع وقت ممكن. وبعضها الآخر تعرض لهجوم من أوباش الهنود الحمر فضلوا الطريق، وراحوا يبحثون عن طريق بديلة للوصول إلى المدينة.

وفي النهاية يجد الجميع أنفسهم مجبرين على استعمال الطريق نفسه ولو عبر طرق فرعية للوصول إلى غاياتهم، وفعلاً تصل أغلب هذه العربات إلى المدينة في النهاية، وهذه العربات عندما تصل لا تختلف بعضها عن بعض إلا في شيء واحد، وهو توقيت وصولها إلى المدينة؛ أي سرعة أو بطء وصولها إلى الديمقراطية الليبرالية، ومن ثم نهاية رحلتها الطويلة)، وهذا ما يسميه فوكوياما بنهاية التاريخ.

تناقضات فوكوياما ومغالطاته:

تضمنت هذه الأطروحة مغالطات وتناقضات؛ بسبب عدم التجرد في البحث، والانحياز في العرض، ومن ذلك:

ـ دعوى نهاية التاريخ سبقت فوكوياما، فالفيلسوف هيجل الذي كانت فلسفته هي العماد الفكري لأطروحة

فوكوياما أنهى التاريخ في عام ١٨٠٦م عندما دحر نابليون مملكة بروسيا، حيث انتصرت مُثُل الثورة الفرنسية (الحرية والمساواة)؛ باعتبار أن هذه المثل ستنتشر إلى بقية أنحاء العالم؛ فهل انتهى التاريخ فعلاً؟ ثم الفيلسوف الآخر المتأثر بهيجل (كوجيف) أنهى التاريخ في أعقاب الحرب العالمية الثانية؛ فهل انتهى التاريخ عند تلك النقطة، وهل تحقق شرط عدم وجود ادعاء أيديولوجي آخر بأنه مغاير لليبرالية وأكثر رقيّاً؟ إن ظهور المعسكر الشيوعي بفلسفته المادية الماركسية، وبدعواه تحقيق مجتمع البروليتاريا المثالي، وتناقض الرأسمالي، كافٍ لوحده في الدلالة على أن التاريخ لم ينته فضلاً عن غيره، وإنما هي دعاوى محكومة برؤية وقتية وغير محايدة.

- أطروحة فوكوياما عبارة عن رد فعل متعجل لسقوط الشيوعية التي يتمركز في قيادتها الاتحاد السوفييتي، ولذا جاء معظم تنظيره مستنداً إلى نتائج المقارنة بين الشيوعية ومجتمع البروليتاريا، حيث الصراع الفكري بين الماركسية والرأسمالية من خلال فلسفة الديالكتيك على مستوى الوعي، والصراع السياسي، وسباق التسلح؛ بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الليبرالي على الأرض، وكلا الفكرين ينتميان إلى منظومة فكرية واحدة هي الفكر المادي الغربي، ولو سلَّمنا لفوكوياما من باب التنزل لقلنا إن جزءاً من التاريخ انتهى، وهو تاريخ هذه المنظومة، أما أن يكون التاريخ انتهى مطلقاً أو شبه مطلق - كما يسوقه صاحب الأطروحة؛ فهيهات.

- إن فكرة نهاية التاريخ عند فوكوياما منقوضة برؤية مفكرين آخرين أضخم حجماً من فوكوياما وأكثر حيادية، وهم من المجتمع الذي ادعى أن التاريخ قد انتهى عنده؛ من أمثال المفكر المخضرم تشومسكي، والذي نظر إلى الواقع وحكم بإخفاق ذلك المجتمع في أن يكون مؤهلاً لقيادة العالم؛ لإخفاقه في عالم القيم، ولعنصريته تجاه الآخرين، كما في كتابه (ماذا يريد العم سام؟). ومن مثل بول كندي الذي انتقده فوكوياما؛ لأنه ينقض عليه فكرته في كتابه (قيام الإمبراطوريات وسقوطها)، فقلب هذان المفكران والمؤرخان الطاولة على فوكوياما في عالميه؛ الأول في العالم المادي، والثاني في عالم الوعي.

- ومن حيث الواقع؛ فإن المجتمعات الغربية تعاني من صراعات حقيقية قد تنتهي إلى صدام، ففي داخل المجتمع الأمريكي هناك صراع في أوساط المثقفين بين الليبراليين والمحافظين، وبين العنصريين (اليمين المتطرف) الذين يشكلون مئات المليشيات المسلحة، ومجتمعات الأقليات، ثم بين هذا اليمين المتطرف وبين النظام الرسمي، وهي في ازدياد. وفي أوروبا تتصاعد قوة العنصريين (النازيين) باطراد على الرغم من العوائق القانونية والرسمية، وقد شهد بذلك الواقع جميس كورت، وهو أستاذ للعلوم السياسية في مقالة له بعنوان: (تصادم المجتمعات الغربية) - وهي جزء من دراسة بعنوان (الصدام الحقيقي) - نشرها في مجلة الثقافة العالمية - عدد ٧٧، وهو يرد على هانتنجتون في صدام الحضارات، حيث لفت أنظار الغرب إلى أن الصدام الحقيقي سوف يكون داخل الغرب، أو الغرب مع نفسه؛ فهل يصح أن نقبل دعوى انتهاء التاريخ عند هذا المجتمع بهذا الوصف فضلاً عن غيره من المجتمعات؟

وأيضاً فإن المباديء التي قامت عليها الليبرالية الغربية (الحداثة الغربية)، والتي يبشر بها فوكوياما، بدأت تواجه نقداً مريراً داخل الغرب نفسه منذ فترة من الزمن، حيث إن مرحلة «ما بعد الحداثة» التي ينتقل لها الفكر الغربي تقوم على أساس نقض فكر مرحلة الحداثة كالديمقراطية والليبرالية والعقلانية والمادية والمناهج الوضعية، ومن حيث الواقع؛ فإن تصدع الغرب حذر منه العديد من المفكرين والسياسيين، وقد عبَّرت عن ذلك مستشارة رئيس الوزراء الفرنسي السابق لشؤون الدفاع والاستراتيجيات «مارليسول تورن» في كتابها (تقلب العالم) الذي صدر عام ١٩٩٥م، حيث قررت أن الغرب لم يعد يكتب التاريخ، فبعد أن ذكرت مظاهر الأزمة الاقتصادية نبهت إلى الأزمة الأيديولوجية، وقالت: أدى سقوط الشيوعية إلى سيادة المبادئ الديمقراطية، ولكنه أدى أيضاً إلى التشكيك بجدوى كل النماذج السياسية الغربية المطروحة، وأصبحت الديمقراطيات تبحث لنفسها عن هدية إيجابية، وهكذا تدهورت مكانة الديمقراطية الاجتماعية وتبعتها الليبرالية، أما الرأسمالية فلم تعد مبدأ تعبوياً.

ـ أما تداعيات أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠٠م داخل المجتمع الأمريكي وخارجه، وسلوكيات أمريكا تحت لافتة ما تسميه (حرب الإرهاب)؛ فقد كشف عن خلل مروع في قيم المجتمع الليبرالي الغربي خاصة الأمريكي، التي يفتخر بها على الآخرين، والتي سولت لفوكوياما أن يطرح هذه الدعوى العريضة؛ الأمر الذي دفعه إلى أن يطرح تراجعات عنها من فترة لأخرى عبر مقالات وكتب، وإن لم يعترف بخطأ أطروحته بشكل واضح وصريح، ولو فعل ذلك فليس بدعاً من أساتذته في هذه الفلسفة؛ فقد تراجع قبله كل من هيجل وإلكسندر كوجيف عن فكرتيهما في نهاية التاريخ اللتين دفعتا فوكوياما إلى مثل هذه الأطروحة.

ـ ومن المنظور الإسلامي الحضاري؛ فإن فكرة (نهاية التاريخ) هذه فكرة دنيوية بحتة تقوم على فكرة القيم الدنيوية العلمانية، وهي فكرة تناقضية عنصرية تعلي من شأن القيم الليبرالية وتروج لها على حساب القيم الأخرى؛ فضلاً عن أنها لا تستند إلى موازين الوحي الرباني، بل هي مخاصمة له في معظم الكليات العقدية وصور الواقع، يقول فوكوياما: «أصبح الفصل بين الدين والدولة أحد مكونات الحداثة المعاصرة»[1]، ولذا فالإسلام يقف بكل تحد وشموخ مبشراً بإمكانية وجود مجتمع بشري مغاير لليبرالية وأكثر رقيّاً منها، موجود في عالم الوعي على الدوام، وتحقق في عالم الواقع أكثر من مرة، وفي هذا نقض صريح لمقولات نهاية التاريخ السابقة واللاحقة، وقد اعترف فوكوياما ـ كما سبق ـ بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يطرح الدولة الدينية كبديل لليبرالية.

والخلاصة:

أن فكرة فوكوياما هي جزء من الأدبيات التي تسوّق الفكر التغريبي الليبرالي بكل ماديته، وفرديته، ودنيويته، وتناقضه الاجتماعي، وفوضى القيم، وهي جزء من رؤية عنصرية تجاه الآخر، خاصة الإسلام، فهو

(١) مقالة بعنوان: (هدفهم العالم المعاصر) النيوزويك، ديسمبر ٢٠٠١م.

كغيره من المنظرين الغربيين العنصرين مسكون بالخوف من مارد محاصر هو الإسلام، فالإسلام هو العائق الوحيد أمام مسار التحديث كما قرر في كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، ثم فصَّل فكرته تلك وأكدها بعد مرور عشر سنوات بقوله: «إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة»[1]، ولن يغيب عن الذهن أن الحداثة عنده هي العلمانية، ولذا فهو يمجد ديمقراطية أتاتورك باعتبار أنها الديمقراطية الوحيدة في العالم الإسلامي، واكتشاف الخلط والتلبيس هنا متروك لفطنة القارئ.

ويتمادى فوكوياما في تطوير فكرته حتى يلتقي وفكرة صدام الحضارات، فيقرر ـ في مقاله الآنف الذكر ـ أن ما يجري الآن ليس حرباً على مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل على مجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم السياسية الأخرى. ولا ينسى السلفية الوهابية من الهجوم وكَيْل التهم لها بأنها إسلامية فاشية، لا لشيء إلا لأنها ترفض قيم الحداثة بمفهومها العلماني، ثم يحرض الغرب على استعمال القوة في مواجهة الإسلاميين فيقول في المقال: «إن القوة لها شأن كبير، فالفاشية الألمانية لم تنهر بسبب التناقضات الأخلاقية الداخلية، بل ماتت لأن ألمانيا احتُلت وتحولت إلى أنقاض بفعل قصف جيوش الحلفاء». وبناءً على ذلك؛ فإن فوكوياما وضع المجتمع الإسلامي أمام خيارين؛ إما أن يصل إلى وضع سلمي مع الحداثة، وإما الدمار. ثم يختم مقاله موفقاً بين فكرة الصدام والإنسان الأخير قائلاً: «إن الصراع بين الديمقراطية الليبرالية الغربية والفاشية الإسلامية ليس صراعاً بين نظامين حضاريين يتمتعان بقابلية البقاء نفسها».

ثانياً: صدام الحضارات[2] (Civilazation clash) ـ صاموئيل هانتنجتون[*]:

عرض لأهم أفكار الأطروحة:

تقوم فرضية هانتنجتون على أن المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد لن يكون أيديولوجياً أو اقتصادياً في الأساس، فالتباينات بين الجنس البشري ستجعل المصدر المحوري للصراع ثقافياً، وسيقع الصراع في السياسة الدولية بين دول وجماعات صاحبة حضارات مختلفة، وسيهيمن صراع الحضارات على السياسة الدولية، وستكون الفوارق الفاصلة بين الحضارات مثل خطوط قتال في المستقبل، وسيشكل صراع الحضارات

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ظهرت هذه المقالة في صيف عام ١٩٩٣م، في مجلة شؤون خارجية الأمريكية، ثم إن المؤلف وسَّع أطروحته بكتاب بعد ذلك، وأراد بها تقديم نموذج لفهم ما سيحدث من تطورات جديدة في العالم بعد انهيار الشيوعية، وسقوط نموذج الحرب الباردة الذي كانت تصنف فيه الدول إلى ثلاثة عوالم؛ أول وثان وثالث.

(*) أستاذ نظم الحكومات، ومدير معهد جون إم أولين للدراسات الاستراتيجية، بجامعة هارفارد، وضع الدراسة في إطار مشروع لمعهد أولين عن «البيئة المتغيرة والمصالح القومية الأمريكية».

آخر مراحل تطور الصراع في العالم المعاصر، وبشكل أخص فإنه بعد انتهاء الحرب الباردة، وبعد خروج السياسة الدولية من طورها الغربي (الرأسمالي والشيوعي)؛ سيكون الصراع بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرىٰ.

ويعرف الثقافة بأنها تشمل كلاً من اللغة والتاريخ والدين والعادات، إن الحضارة هي أرفع تجمع ثقافي للبشر، وهي أشمل مستوىٰ للهوية الثقافية، وربما تضم الحضارة الواحدة عدداً من الدول القومية، كالحضارة الغربية التي تضم الدول الأوروبية والأمريكية الشمالية، كذلك الحضارة الإسلامية، حيث تضم ثلاث حضارات فرعية هي العربية والتركية والملاوية.

والحضارات كيانات ديناميكية، فهي تصعد وتسقط، وتنقسم وتندمج، وقد تختفي وتدفن تحت رمال الزمن، وقد رصد أرنولد توينبي في مؤلفه في التاريخ إحدىٰ وعشرين حضارة كبرىٰ، لم يبق منها في عالمنا المعاصر سوىٰ ست حضارات فقط.

لماذا سيقع الصدام بين الحضارات؟

يجيب هانتنجتون علىٰ ذلك بأن أهمية الهوية الحضارية ستزداد في المستقبل، وسيتشكل العالم إلىٰ حد كبير نتيجة التفاعل بين سبع أو ثماني حضارات كبرىٰ، هي: الغربية، والكونفوشية، واليابانية، والإسلامية، والهندوسية، والأرثوذكسية السلافية، والأمريكية اللاتينية، وربما الإفريقية.

وسيقع الصراع على امتداد خطوط الهوة الثقافية التي تفصل بين تلك الحضارات بسبب:

١ ـ مكونات الثقافة وخاصة الدين.

٢ ـ زيادة التفاعل بين أصحاب الحضارات المختلفة الذي قاد إلىٰ الوعي بالاختلاف الحضاري.

٣ ـ نزوع الناس عن هويتهم المحلية، وضعف الدولة القومية كمصدر للهوية؛ بسبب التحديث الاقتصادي والتغيير الاجتماعي، وعادة يقوم الدين بسد هذه الفجوة؛ لأنه يوفر أساساً للهوية الذي يتجاوز حدود القومية ويوحد الحضارات.

٤ ـ أن الاختلافات والخصائص الثقافية أقل قابلية للتغير؛ ومن ثم أقل سهولة في تسويتها وحلها عن الاختلافات السياسية والاقتصادية.

٥ ـ أيضاً بسبب دور الغرب الذي بلغ أوج قوته، وأراد ترويج قيمه بوصفها قيماً عالمية للحفاظ علىٰ هيمنته العسكرية ومصالحه الاقتصادية؛ مما خلق ردود فعل من قِبَل الحضارات الأخرىٰ.

ثم إن الإقليمية الاقتصادية آخذة في التزايد بين دول الحضارة الواحدة؛ مما سيعزز الوعي الحضاري بأن الحضارة المشتركة هي سبب النجاح كما هو في دول الاتحاد الأوروبي، ومع انتهاء الحرب الباردة تغلبت الشراكة

الثقافية على الاختلافات الأخرى كما في الصين وتايوان.

ومع تضاؤل القدرة على حشد التأييد، وتشكيل التحالفات والائتلافات على أساس أيديولوجي؛ ستحاول الحكومات والجماعات حشد التأييد بالطَّرْق على وتر الدين والهوية الحضارية المشتركة، وهكذا فإن صدام الحضارات يقع على مستويين، على مستوى الميكرو، حيث تدور صراعات بين جماعات التخوم على طول حدود الهوة الفاصلة بين الحضارات؛ تكون نقاط أزمات وإراقة دماء (حرب ساخنة)، وعلى مستوى الماكرو فإن الدول صاحبة الحضارات ستتنافس للاستحواذ على قوة اقتصادية وعسكرية نسبية، وتتصارع حول السيطرة على المؤسسات الدولية، كما تتنافس في ترويج قيمها الدينية والسياسية (حرب باردة).

ثم استشهد هانتنجتون بالصراع الذي نشأ في البلقان بين الأوروبيين المسيحيين والصرب الأرثوذكس، وبتاريخ الصراع بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي على طول الخط الفاصل بين الحضارتين الغربية والإسلامية منذ أكثر من ١٣ قرناً وحتى حرب الخليج الثانية، ثم الصراعات بين المسلمين والمسيحيين في السودان والبلقان، وكذلك الصراع في آسيا الوسطى بين المسلمين والروس، كما بين الهندوس والمسلمين، وكذلك داخل الهند، وفي الفلبين، وبورما، وإسرائيل، فالإسلام تحده حدود دامية كما يقول هانتنجتون.

وفي المستوى الآخر عادت الخلافات بين أمريكا والصين في مجال حقوق الإنسان، والتجارة، ومنع انتشار الأسلحة، لدرجة أن أحد زعماء الصين أكد عام ١٩٩١م أن حرباً باردة جديدة تدور بين الصين وأمريكا، كذلك يحدث بين أمريكا واليابان. ثم استشهد بكلام للدكتور سفر الحوالي إبان حرب الخليج بأن الذي يجري هو حرب بين الغرب والإسلام، وبكلام آخر لعلي خامنئي إبان تلك الحرب: بأن النضال ضد العدوان والمخططات الأمريكية يعد جهاداً ومن يُقتل فهو شهيد، وكلام ثالث للملك حسين بأن هذه الحرب ضد كل العرب والمسلمين وليس ضد العراق وحده، ثم موقف المسلمين من التصرفات الغربية ذات المعايير المزدوجة بشأن تطبيق قرارات الأمم المتحدة بين العراق وإسرائيل.

ثم يقرر هانتنجتون أن عالم الحضارات المتصادمة هو عالم يستخدم المعايير المزدوجة مع الآخرين في الحضارات الأخرى، بينما يطبق معياراً واحداً مع الدول الشقيقة داخل الحضارة الواحدة (الغربية).

يثير هانتنجتون إشكالية العلاقة والاندماج بين البلدان غير الغربية والغربية، وتفاوت العراقيل التي تكون أقل بالنسبة إلى دول أمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية، وأكثر بالنسبة إلى مجتمعات أخرى إسلامية، ويضرب مثالاً بتركيا وعجزها في محاولاتها الدخول في الاتحاد الأوروبي، ويحدد شروطاً لإعادة تحديد الهوية من أجل الاندماج الحضاري، وهي:

- أن تكون النخب الاقتصادية والسياسية مؤيدة بل متحمسة لهذا الإجراء.
- أن يكون الرأي العام مستعداً لقبول ذلك.

ـ أن تكون الجماعات المهيمنة في الحضارة مستعدة لتتبنى هذا التحول.

فمثلاً تتوفر هذه الشروط الثلاثة في المكسيك، بينما يتوفر الشرطان الأولان بقدر كبير في تركيا.

ثم أشار إلى أشكال من التعاون مهمة تدعم أطروحته، وهي العلاقة الكونفوشية الإسلامية التي تتحدى المصالح والقيم والقوة الغربية، واعترف بأن مفهوم الحد من التسلح المطروح من الغرب قبل نهاية الحرب الباردة وبعدها؛ هو منع غير الغربيين من تطوير السلاح الذي تعتقد أنه حق لها، خاصة بعدما أجاب وزير الدفاع الهندي عن الدرس من حرب الخليج الثانية بقوله: «عليكم ألا تقاتلوا الولايات المتحدة ما لم يكن بحوزتكم أسلحة نووية»، ثم تطوير الصين لقوتها العسكرية وتصديرها لهذه التكنولوجيا إلى دول إسلامية مثل باكستان.

قسم هانتنجتون دول العالم إلى دول تريد التحديث وتقبل التغريب؛ مثل اليابان، وأخرى تريد التحديث ولا تمانع من التغريب؛ مثل روسيا ويوغسلافيا والهند ودول أمريكا اللاتينية وشرق أوروبا، ودول تريد التحديث وترفض التغريب؛ وهي التي يسميها بالرابطة الإسلامية الكونفوشية، والتي يقول عنها إنها تتحدى الغرب في مصالحه وهيمنته وقيمه.

وفي النهاية يعترف صاحب الأطروحة أنه ستبقى بعض الهويات، وستبقى الدولة القومية، ويبقى بعض الصراعات داخل الحضارة الواحدة.

ولتقريره أن الاختلافات الحقيقية هي بين الحضارات، وأن الوعي الحضاري آخذ في الازدياد؛ فإن الصراع بين الحضارات سيحل محل الصراع الأيديولوجي وجميع الأشكال الأخرى للصراع كشكل كوني مهيمن للصراع، وستدار لعبة العلاقات الدولية بصورة تكون فيها الحضارات غير الغربية قوى فاعلة لا مجرد ميداناً للفعل، وسيتمثل المحور الأساسي للسياسة الدولية في العلاقات بين الغرب والباقي، وستكون بؤرة الصراع الأساسية في المستقبل القريب بين الغرب وعدد من الدول الإسلامية والكونفوشية (الصينية).

وبناء على هذا الافتراض المعقول عنده؛ فهو يطالب بدراسة آثاره على السياسة الغربية، ولذا يوصي بما يأتي:

على المدى القصير:

أ ـ الترويج لتعاون ووحدة أكبر داخل الحضارة الغربية بين الأمريكي والأوروبي.

ب ـ العمل على دمج مجتمعات شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية مع الغرب لتقارب الثقافتين.

ج ـ الحفاظ على تعاون مع روسيا واليابان.

د ـ الحد من تعزيز وتوسيع القدرة العسكرية للدول الإسلامية والكونفوشية (الصين).

هـ ـ تخفيف خفض القدرات العسكرية الغربية، أو بمعنى آخر: إعادة تعريف (الحد من التسلح) الذي يطبقه الغرب على نفسه، بينما غيرهم يسعون إلى التسلح والحفاظ على التفوق العسكري في جنوب غرب آسيا وشرقها.

و ـ استغلال الاختلافات والصراعات بين الدول الإسلامية والكونفوشية (الصين).

ز ـ تأييد الجماعات المنتمية إلى حضارات أخرى المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية (العلمانيين).

ح ـ تقوية المؤسسات الدولية التي تعكس وتضفي شرعية على المصالح والقيم الغربية.

وأما على المدى الطويل:

أ ـ التكيف مع الحضارات الأخرى الحديثة التي تقترب قوتها من قوته، مع الاحتفاظ بالقوة الاقتصادية والعسكرية.

ب ـ الوصول إلى فهم أكثر عمقاً للمنطلقات الدينية والفلسفية الأساسية للحضارات الأخرى.

ج ـ بذل مساع لتحديد عناصر الشراكة بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى.

ثم يقرر في النهاية أنه في المستقبل لن تكون هناك حضارة عالمية، بل عالم ذو حضارات مختلفة؛ سيتعين على كل منها أن تتعلم كيف تتعايش مع الحضارات الأخرى.

وباختصار يرى أن على الغرب أن يستعد لصراع مرير مع تحالف الحضارة الإسلامية والكونفوشية؛ من خلال إجراءات سريعة تمثل نوعاً من الاحتواء والقهر لها ولو بالقوة، وإجراءات طويلة تمثل نوعاً آخر من الاحتواء والاختراق لهاتين الحضارتين المتحالفتين غير الحديثتين، ثم يتعايش معها بعد قهرها واختراقها.

هذه خلاصة أطروحة هانتنجتون في صدام الحضارات، وهو مقلد في ذلك للمفكر والسياسي الأمريكي «جورج كينان» الذي وضع نظرية احتواء الشيوعية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تنبأ أن النازية ليست نهاية المشكلات العالمية، وأن الخطر الجديد هو الشيوعية، فلا بد من احتوائها بتأسيس أحلاف جديدة وخطط استراتيجية في دول العالم، وهانتنجتون يسير بالتفكير نفسه لكن مع الحضارة الإسلامية أولاً، ثم الصينية؛ لأنهما تمثلان الخطر الجديد على الحضارة الغربية في المزاج العام الغربي، وتهددان مصالحه.

إن الخطورة في هذه الأطروحة ليس في كونها تثبت فرضية تاريخية برزت من المقدمة إلى النتيجة، وإنما خطورتها في أن جوهر الأطروحة هو التحذير من الإسلام، ودفع الغرب لمواجهته، وتسويغ هذه المواجهة. وأما الصين فتأتي عرضاً عند ذكره لاحتمال التحالف الإسلامي الصيني، أو عند ذكره للنمو الاقتصادي في جنوب شرق آسيا. أما القضية الرئيسة في أطروحته فهي الإسلام الذي ظهر وكأنه مادة البحث، سواء في التحليل التاريخي، أو في عرض وقائع الحاضر والمستقبل، وقرر ذلك في كتابه بقوله:

«إن المشكلة لا تتعلق فقط بالأصوليين الإسلاميين، وإنما بالإسلام نفسه»، وهانتنجتون في أطروحته تلك يؤصل لموقف عملي غربي عدائي تجاه الإسلام؛ صوره في التاريخ كثيرة، وأما في العصر الحاضر فإن الإسلام هو الشغل الشاغل للغرب؛ خاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، والاستغناء عن التحالف مع الإسلام ضد الشيوعية، وطرح فكرة العدو البديل بقوة، واستعمال الغرب لنظرية الصدام، وتغذيتها فكرياً وسياسياً وميدانياً.

فالعدو الحقيقي لأصحاب نظرية الصدام وأصحاب المطامح والمصالح هو الإسلام والسلام، فالحماية من الاتحاد السوفييتي كانت السلعة التي تروجها الولايات المتحدة؛ لذا قال مستشار جورباتشوف: «نحن نقوم بأمر مروع لكم، فنحن نحرمكم من عدو»[1].

وأما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر؛ فإن الغرب وجد فرصته لوصم المسلمين بالإرهاب، ثم رفع راية معركة سماها «الحرب على الإرهاب» ليمارس صداماً حضارياً لكن من طرف واحد؛ مؤكداً مقولة هانتنجتون في رده على المنتقدين له: «نظريتي تبقى صحيحة ما دام لم يقم بديل أفضل منها».

إن صاحب الأطروحة عاد يؤكد نفسه بعد ثماني سنوات[2]؛ مستشهداً بأحداث سبتمبر على صحة رؤيته بقوله: «إن بذور صدام عام بين الحضارات باتت منثورة، فردود الفعل على أحداث سبتمبر، وردة الفعل الأمريكية جاءت وفقاً لمنظور حضاري»؛ مستشهداً بموقف الدول الغربية المساندة لأمريكا، والذي لخصته صحيفة لوموند الفرنسية حين كتبت في عنوان رئيس لها: (كلنا أمريكيون)، وبإعلان البرلينيين في إشارة إلى خطاب كندي: «كلنا نيويوركيون».

اعترافات خطيرة:

لقد اعترف هانتنجتون بعدد من الاعترافات في أثناء أطروحته، وهي معروفة لكل المراقبين للسياسة الدولية المعاصرة، ولكن نلخصها هنا من باب وشهد شاهد من أهلها:

- ازدواجية المعايير الغربية في التعامل مع الآخرين.

- المؤسسات الدولية تعكس مصالح الغرب، بينما تطرح أمام العالم على أنها انعكاس لرغبة المجتمع الدولي.

- ترويج الغرب لقيمه بوصفها قيماً عالمية للحفاظ على هيمنته العسكرية ومصالحه الاقتصادية؛ لأنه بلغ أوج قوته، وهذا من أسباب الصدام.

- استخدام مصطلح «المجتمع الدولي» محل «العالم الحر» لتضفي شرعية كونية على تصرفات تعكس مصالح الغرب.

- الهيمنة على مجلس الأمن وقراراته من قِبَل الغرب.

- استغلال الغرب للمؤسسات الدولية، والقوة العسكرية، والموارد الاقتصادية؛ لإدارة العالم بطرق من شأنها المحافظة على الهيمنة الغربية، وحماية المصالح الغربية.

---

(١) انظر: مقدمة صلاح قانصوه لترجمة طلعت الشايب لكتاب «صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي» تأليف صمويل هانتنجتون.
(٢) مقالة «حروب المسلمين» نشرها في مجلة النيوزويك، ديسمبر ٢٠٠١م.

ـ إن فكرة الحد من الأسلحة لدىٰ الغرب هي منع المجتمعات غير الغربية من تطوير قدرات عسكرية يمكن أن تهدد المصالح الغربية؛ عن طريق الاتفاقات الدولية، والضغوط الاقتصادية، وفرض قيود علىٰ نقل الأسلحة وتكنولوجيا السلاح.

ـ إن الديمقراطية الغربية؛ تؤدي إلىٰ تعزيز القوىٰ السياسية المناهضة للغرب، ولذا فإن هانتنجتون يعلق ـ بما يشبه التحذير ـ علىٰ دعوة الغرب للديمقراطية، والتي تجد آذاناً صاغية في الأقطار الإسلامية بقوله: «المستفيد الرئيس من هذه الانفتاحات علىٰ الديمقراطية هي الحركات الإسلامية».

ـ يقرر أن النمو السكاني الكبير في الدول العربية خاصة الشمال الإفريقي، وتزايد هجرة سكان هذه الدول إلىٰ أوروبا ستكون نتيجته الحتمية تعزيز الصدام الحضاري بين الغرب والإسلام، وإذن فدعوة الغرب شعوب شمال إفريقيا والشرق الأوسط إلىٰ تحديد النسل ليست من أجل التنمية كما يقال؛ بل من أجل وضع حدٍ لتزايد السكان في هذه المناطق التي هي سكنىٰ الأعداء!

ـ يؤكد هانتنجتون حقيقة الغرب التصادمية فيقول: «ابتداءً من سنة ١٥٠٠م بدأ التوسع الضخم للغرب مع جميع الحضارات الأخرىٰ، وقد تمكن الغرب أثناء ذلك من الهيمنة علىٰ أغلب الحضارات، وأخضعها لسلطته الاستعمارية، وفي بعض الحالات دمر الغرب تلك الحضارات».

نقد هانتنجتون وبيان مغالطاته:

تضمنت أطروحته مجموعة من المغالطات، والرصد الانتقائي غير المتجرد، وبعض الأفكار والأدلة التي علىٰ الرغم من صحتها النسبية؛ لكنه صاغها بتعريض ماكر لدعم فكرته تلك، ومن أبرز ذلك:

ـ أطوار الصراعات الخمسة بين الأمراء والأباطرة، ثم بين الملوك المستبدين والملوك الدستوريين، ثم بين الدول القومية والأمم حتىٰ نهاية الحرب الأولىٰ، ثم صراع الأيديولوجيات حتىٰ نهاية الحرب الثانية، لينتقل الصراع إلىٰ صراع بين الشيوعية وبين الديمقراطية الليبرالية، كل ذلك داخل الحضارة الغربية بالدرجة الأولىٰ، ومع نهاية الحرب الباردة تخرج السياسة الدولية من طورها الغربي إلىٰ التفاعل والصراع بين الغرب والحضارات الأخرىٰ، والمغالطة هنا أنه يتجاهل أنواعاً من الحروب حصلت داخل تلك الحضارة، كالحروب الدينية، وحروب المصالح بين فرنسا وبريطانيا، وحرب الاستقلال الأمريكية، ثم الحرب الأهلية في أمريكا، ثم تجاهل حروباً أخرىٰ بين دول الغرب ودول أخرىٰ، كحروب التحرير في آسيا، وإفريقيا، والهند الصينية، وفيتنام، والمغرب العربي، والسبب أنها لا تخدم هذه النظرية.

ـ وزع الحضارات حسب إمكانية وقابلية اندماجها في الحضارة الغربية، فقرر أن اليابانيين أصبحوا جزءاً من الغرب سياسياً وتكنولوجياً، وكذلك الشأن بالنسبة للشعوب السلافية لأنها جزء من أوروبا، وترغب في الاندماج فيها، كذلك أمريكا اللاتينية، أما الهند فهي تتراجع عن تراث نهرو وتعود إلىٰ الهندوسية، وتعاني من

التمزق الداخلي بسبب الطوائف والأقليات، وأما إفريقيا فلم يجزم بدخولها في الصراع، فماذا يبقى بعد؟ تبقى الحضارتان الإسلامية والكونفوشية (الصينية)؛ إذن لماذا صدام الحضارات السبع أو الثماني ما دامت حتمية الصدام هي فقط بين الغرب وهاتين الحضارتين فقط، وبالأحرى بين الغرب والإسلام ـ كما هو طرح هانتنجتون ـ؟

ـ كذلك صنف هانتنجتون بطريقة أخرى دول الحضارات الثماني التي ما زالت قائمة؛ إلى دول تريد التحديث وتقبل التغريب مثل اليابان، وأخرى تريد التحديث ولا تمانع في التغريب، وهي مهددة بالتمزق الداخلي مثل روسيا والهند، أو دول تريد التحديث ولا ترفض التغريب، وهي تعاني من مشكلات مزمنة مثل دول أمريكا اللاتينية، وتبقى دول تريد التحديث وترفض التغريب وهي التي يسميها دول الرابطة الكونفوشية الإسلامية، ويرى أنها تعمل على تطوير قواها الاقتصادية والعسكرية، وتتحدى هيمنة الغرب ومصالحه. ويغالط أكثر فيدعي أن شكلاً من أشكال سباق التسلح ينشأ بين أعضاء هذه الرابطة والغرب، ويقرر أن الصدام سيكون بينها وبين الغرب، وهنا تظهر الروح العدوانية والأنانية؛ فالمعيار لتلافي الصدام هو الاندماج وقبول التغريب، أما المحافظة على الخصوصيات، واعتبار المصالح، واستقلالية الهوية؛ فهذا مرفوض ولا بد من الصدام، وهذا تعبير عما قام عليه الغرب منذ القرن الخامس عشر الميلادي تجاه الأمم والحضارات الأخرى، حيث قام على أساس النفي والتدمير لها، وقتل الملايين من الشعوب، وعلى درجة من العنف والقسوة لم تظهره أي حضارة أخرى من الحضارات التي تحدث عنها هانتنجتون، وما زال الغرب كذلك ولكن بأساليب أكثر تقنية.

ـ استعمل الدين كمقياس للتمييز بين الحضارات فقط مع الإسلام وحده، أما الحضارات الأخرى فهو ينسبها إلى شيء آخر غير الدين، فالكونفوشية فلسفة أخلاقية وسياسية، والديانة السائدة هي البوذية وهي منتشرة في اليابان، فالمفروض أن تضم الصين إلى اليابان تحت اسم الحضارة البوذية؛ ما دام الدين اعتمد كمقياس للتصنيف! كذلك الحضارة الغربية تحت اسم الحضارة المسيحية، وتضم معها الدول السلافية ودول أمريكا اللاتينية، ومن هنا يتناقض هانتنجتون ولا يطرد.

ـ يقرر أيضاً أن الكتل الاقتصادية الإقليمية يمكن أن لا تنجح إلا عندما تكون متجذرة في حضارة مشتركة، ويضرب مثالاً على ذلك: الاتحاد الأوروبي، ومنظمة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية، لكن لماذا لم تنشأ تكتلات اقتصادية في الدول الإسلامية رغم الدعوة إلى ذلك منذ زمن بعيد، وهي دول في حضارة واحدة؟

ـ يتكلم عن الصدام بين المسيحية الغربية والإسلام، ويستعرض التاريخ منذ زمن الفتوحات، ثم الحروب الصليبية، ثم حروب الدولة العثمانية، ثم الحروب الإسرائيلية العربية، ثم الصراع بين الغرب والقومية العربية، ثم مع الأصولية الإسلامية، ثم يقرر أن هذا الصراع لن يتلاشى بل لعله يشتد اشتعالاً، ويستشهد بالمستشرق المشهور بعداوته للعرب والمسلمين «برنارد لويس» الذي يقول إنه وصل إلى نتيجة مماثلة، حيث يقول: «إننا نواجه مزاجاً وتحركاً سيرفعان إلى حد كبير من وتيرة القضايا والسياسات والحكومات التي تنتهجها، وهذا ليس

سوىٰ صدام حضارات، فهو رد الفعل اللاعقلاني والتاريخي لخصم قديم علىٰ تراثنا اليهودي المسيحي، وحاضرنا العلماني، وانتشارها علىٰ نطاق عالمي»، ثم يُذكر هانتجتون بصدام المسلمين مع الشعوب السوداء، ومع الشعوب الأرثوذكسية ليقول في النهاية: «حقاً إن للإسلام حدوداً دموية»، والخلاصة أنه يريد تجريم الإسلام، وتحميله مسؤولية الصدامات والحروب التي شهدها منذ ظهوره الذي سماه: (خط التوتر الممتد من أوروبا الغربية إلىٰ الشرق الأوسط عبر البلقان إلىٰ إفريقيا وآسيا).

ألا يمكن إجراء توصيف وعرض مماثل لكن باتجاه معاكس؛ برسم خريطة الصراع وخطوط التوتر منذ التاريخ القديم، بصورة تجرم أوروبا والغرب بصورة صارخة، ابتداءً من حروب الإسكندر المقدوني اليوناني، فحروب الرومان والبيزنطيين، والحروب الصليبية، ثم الحروب الدينية في كل أوروبا، والحروب الاستعمارية في كل القارات، فالحربين العالميتين، حتىٰ قيام (إسرائيل) وحروبها، وانتهاءً بحرب الخليج الثانية، ثم الثالثة! مما يجعل الباحث المنصف يدين الغرب ويجرمه بشكل أوضح وأصرح[1].

ـ هذه الروح الصدامية الصراعية الموجودة في بنية الفكر الغربي الحديث ـ سواء في فلسفة التاريخ عند هيجل، أو فكرة البقاء للأقوىٰ عند دارون، ونظرية الصراع الطبقي في الماركسية والليبرالية ـ غذت هذه النظرة عند الغرب في تعامله مع الحضارات الأخرىٰ؛ من خلال موقفه الإقصائي، ورؤيته الصدامية للآخرين، وهي ما اعترف به هانتنجتون كما مر سابقاً ـ في اعترافاته، وهي ما ينتقده «روجيه جارودي» في كتابه (حوار الحضارات)، حيث يتهم الغرب بأنه هدم حضارات أسمىٰ من حضارات الغرب، وهي فرص أضاعها الغرب علىٰ الإنسانية. ويؤكد هذه الحقيقة باحث آخر هو الفرنسي المسلم «عبد الحليم هربرت» بقوله: قام الغرب علىٰ أساس منطق نفي وتدمير الحضارات الأخرىٰ، وذكَّر بتدمير الإسبان لحضارة الأندلس الإسلامية التي كانت من أهم نقاط الإشعاع الحضاري، كما ذكَّر بغزو الأوروبيين للقارة الأمريكية، حيث أبادوا الملايين من سكانها الأصليين، واستبدلوهم بالملايين من الأفارقة المستعبدين، كذلك استخدام الصينين لشق قناة بنما، وغير ذلك من صور الاستعباد العظيم لعموم القارات، مع إصرار إجرامي لتدمير بقية الحضارات[2].

وأخيراً: فإن ما ذهب إليه هانتنجتون علىٰ الرغم من كل هذه المغالطات والتناقضات لا يمكن رده بالجملة لسببين اثنين مهمين:

١ـ إن من سنن التاريخ التداول بين الحضارات، ومن أسباب الإدالة الصراع والصدام بينها، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ثم إن طبيعة الحياة البشرية وسنتها هي التدافع

(١) قضايا في الفكر المعاصر، فصل: صدام الحضارات، محمد عابد الجابري، وقد حصر أسباب الصدام بالمصالح فقط، وهذا سبب مهم لا شك فيه، لكن قراءة التاريخ والواقع تمنع أن يكون هذا هو السبب الوحيد، ووقفة يسيرة مقارنة لعلاقة الولايات المتحدة والغرب عموماً بالعرب وإسرائيل؛ تكفي في رد حصر أسباب الصدام بالمصالح فقط «ولا شيء غير المصالح» علىٰ حسب تعبير د. الجابري.

(٢) عن مجلة الكلمة، عدد ١٦. وأخيراً ما حصل في بغداد من نهب وتدمير لتراثه الإسلامي الإنساني بسبب احتلال أمريكا له في حرب الخليج الثالثة.

بين المختلفين والصراع بين الحق والباطل، قال الله ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ [**الحج**: ٤٠]، وقال: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾ [**البقرة**: ٢٥١]، وفي ما نؤمن به نحن المسلمين من أحاديث الملاحم الثابتة عن الرسول ﷺ، أنه ستجري صدامات وحروب بين المسلمين وخصومهم خاصة الروم (الغرب) من الصليبيين واليهود الصداميين.

٢ ـ إن الصدام الحقيقي هو الصدام الديني؛ لأن أهم مكونات الحضارة هي الثقافة، وأهم مكونات الثقافة هو الدين، والباعث الرئيس في كل حضارة هو الدين، والأنبياء هم صناع الحضارة، وصدام الغرب للمسلمين سببه ديني كما قرره الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [**البقرة**: ١٢٠]، وقال: ﴿**وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ**﴾ [**البقرة**: ٢١٧]، صحيح أنه عندما يخفت أثر الدين في الأمم تبرز صراعات المصالح أكثر، لكن البشرية تتجه إلىٰ الاحتماء بهوياتها الثقافية، والدين أخص مكوناتها، وهذا ظاهر فيما يحدث الآن علىٰ الساحة العالمية علىٰ الرغم من زخم العولمة المادي الإلحادي، ولم يعد خافياً علىٰ مراقب موضوعي متجرد.

ثالثاً: خرافة المواجهة بين الإسلام والغرب[١] (Islam and the Myth of confrontation) ـ تأليف: فريد هاليداي[٢]:

خرافة التهديد الإسلامي المزعوم، والتحدي الإسلامي للغرب منذ أواخر السبعينيات ـ أي منذ قيام الثورة الإيرانية ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩م ـ بدأت تشغل العالم بشكل مستمر، وسلط عليها الأضواء قادة غربيون وإسلاميون.

ويشخص «هاليداي» أسباب المشكلة بأمرين رئيسين:

١ ـ أنه بمجرد أن يكون الناس إسلاميين بمعنىٰ ديني وثقافي عام يلصق بهم الغربيون معتقدات وسياسات؛ تسعىٰ إلىٰ فرض برنامج سياسي ذي خلفية دينية علىٰ مجتمعاتهم.

٢ ـ وجود صراع بين عالم أوروبا الغربية العلماني (ما بعد المسيحية) وعالم الشعوب الإسلامية، ويدعم أصحاب هذه الدعوىٰ اعتقادهم هذا بصور من الصراع المعاصر (الثورة الإيرانية، والحرب الأهلية اللبنانية . . .)، وكذلك بصورة الصراع التاريخي بين عالم الغرب المسيحي وعالم الإسلام منذ أكثر من ١٠٠٠ عام، ويدعم هذا القلق التاريخي ادعاءات نهاية الحرب الباردة التي كانت نزاعاً بين غرب ديمقراطي رأسمالي وشرق دكتاتوري إسلامي، وأن المناسبة (انتهاء الحرب الباردة) ستتحول إلىٰ إحياء الصراع القديم بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي، والذي سيكون بديلاً أيديولوجياً عن الحرب الباردة.

---

(١) طرح المؤلف رؤيته هذه في كتاب صدر عام ١٩٩٥م عنوانه بالعربية (الإسلام وخرافة المواجهة)، صدرت ترجمته عن مكتبة مدبولي بالقاهرة عام ١٩٩٧م، وصدر له ترجمة أخرىٰ في السنة نفسها عن دار الساقي بلندن.

(٢) أستاذ العلاقات الدولية في مدرسة لندن للاقتصاد، صدر له عدة كتب منها (العرب في المنفىٰ)، (شبه الجزيرة العربية دون سلاطين)، (إعادة التفكير في العلاقات الدولية)، وغيرها.

ويعترف المؤلف بشكل أوضح فيقول: «إن الصراع مع العالم الإسلامي لدىٰ المجتمع الغربي يعكس حاجة داخلية إلىٰ «آخر» مُهدِّد ولكنه خاضع، يجري الربط بين العداء التقليدي ذي الأساس الديني للمجتمع الإسلامي الذي يعود إلىٰ الحروب الصليبية، وبين ضرورة بسط الهيمنة بعد سقوط الشيوعية؛ أي أن هناك أفكاراً عن الصراع بين الإسلام والغرب يجري توليدها تتصل بمصالح الزعماء الغربيين مسيحيين أو رأسماليين أو أثرياء أو إمبرياليين».

ويستشهد المؤلف بحالة الاتحاد السوفييتي إبان الحرب الباردة، حيث ظل الغربيون يزعمون أنه متفوق عسكرياً وأكثر عدوانية، وهو وصف رفضه آخرون واعتبروا أن الغرب هو الأكثر تسلحاً وعدوانية.

لكن هل يمكن دحض مثل هذه الادعاءات مع العالم الإسلامي باليسر والسهولة نفسها؟ يجيب: «ليس ممكناً؛ لأن الخطابية الإسلامية تضاهي من نواحٍ عدة خطابية الغرب في تأكيد تلك الصورة، وليس في دحضها»، واستشهد بخطابات (الخميني، والغنوشي، والترابي، وعباسي مدني) التي ترفض القيم الغربية، وتخوض صراعاً مع الغرب وقيمه.

ولذا يرىٰ «هاليداي» أنه لتصحيح الصورة لا بد من تحدي الأفكار السائدة علىٰ الجانبين، ثم بدأ يرد علىٰ هذه الأفكار التي سماها (خرافة) كما يلي:

ـ تهمة الإرهاب الموجهة ضد المسلمين ليست خاصة بهم، ولم تكن لهم الريادة فيه عندما ظهر في القرن التاسع عشر بمعناه المعاصر، ثم إنه ليس خاصاً بالمسلمين، وقد يكون عند غيرهم أوفر، فلا علاقة لازمة ولا تاريخية بين الإرهاب والهويات الإسلامية.

ـ تهمة الاضطهاد الديني واللاتسامح مع الأقليات وإن صدقت علىٰ المجتمعات الإسلامية إلا أنها ليست خاصة بهم أيضاً، بل إن سجلهم في ذلك أفضل من المجتمعات المنافسة لهم، كما أن الأقليات الإسلامية تعاني من الاضطهاد في أكثر من بلد غير إسلامي، مثل بورما، وكشمير، وفلسطين.

ـ أن مفهوم الخطر الإسلامي أكذوبة، والحديث عن صراع تاريخي دائم بين العالمين الإسلامي والغربي إنما هو لغو، ومن السخف النظر إلىٰ البلدان الإسلامية علىٰ أنها تهدد الغرب، فالقوىٰ الإسلامية الموحدة في ظل الدولة العثمانية انتهت، وقوة العالم الإسلامي اليوم مجتمعة أقل بكثير من قوة الغرب، والدول الإسلامية تحاربت فيما بينها في أحيان كثيرة، والدمار الكبير الذي ستحدثه قنبلة نووية من باكستان سيكون هزيلاً إذا قيس بالتدمير الذي يمكن لأعدائها أن ينزلوه بها.

٣ـ فكرة العدو اللازم والتي سماها «خرافة»؛ فندها علىٰ الجانب الغربي بأنه من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن الغرب يحتاج إلىٰ عدو، هناك بالطبع منافع تتحقق من وجود مجابهة دولية وأيديولوجية دينية، فصانعو الأسلحة يستفيدون منه كما يستفيد منه دعاة الانضباط الاجتماعي.. وفوائد أخرىٰ، لكن إذا كان للتحديات

الخارجية وظيفة تؤديها داخل مجتمع، فإن هذا كان صحيحاً في حالة الحرب الباردة، ولكن هذا لا يعني أن الحرب الباردة كانت بسبب ضغط منافع داخلية كهذه، فالمجتمع الغربي عامة، والرأسمالية الغربية بصفة خاصة؛ لم يكونا ذات يوم بحاجة إلى عدو منهجي، فالرأسمالية كما نظر لها الليبراليون في القرن التاسع عشر إنما هي قوة توسعية، تسعى إلى إخضاع العالم كله لهيمنتها، وإجباره على محاكاة الغرب في مجالات أساسية، ومحركها الرئيس على مستوى الصراع هو المنافسة داخلها على الربح والأسواق.

٤ ـ الروح العنصرية في البلدان الأوروبية ضد المسلمين الذي يعيشون فيها لا سيما فرنسا، حيث أخذت طابعاً معادياً للمسلمين بشكل أكثر سفوراً، وتختلط عناصر من العرقية، والعنصرية، وكراهية الأجانب، ومعاداة المسلمين؛ لتشكيل أيديولوجية مختلطة من نوع التحامل الديني والجنسي والعرقي، وكثير من المسلمين ينظرون إليها على أنها استمرار للعداء المتواصل من جانب العالم غير الإسلامي ضد دينهم، كما أنها تعتبر في الغرب استمراراً للصراع مع العالم الإسلامي، وخاصة أن الأقليات الإسلامية متأثرة بمشاعر الحركات الإسلامية السياسية في بلدان العالم الإسلامي، وتدخل الحلبة كلمات مثل: (العداء المتأصل، والراسخ، والتقليدي)، مع تكهنات مثل التكهن الذي ابتكره مؤخراً هانتنجتون بأن الصراع ينشأ مراراً على امتداد خطوط مجابهة قائمة تاريخياً.

لكن المؤلف يؤكد أن الجالية الإسلامية في أوروبا لا تزيد على ٦ ملايين، وأنها تعاني من التشرذم، وأنها تعاني في الأجيال الشابة من فقدان الهوية، هذا فضلاً عن القيود على الهجرة التي اجتاحت أوروبا أخيراً.

وفي سبيل دعم فكرة الخرافة عنده قام بمسح لأهم بؤر الصراع التي تجري فيها صراعات بين المسلمين وغيرهم، والتي تشكل دعماً لنظرية العداء المتأصل ضد المسلمين، ثم بدأ بتحليل ظواهر الصراع لإثبات أن:

١ ـ الشكل الأيديولوجي لا يمت بصلة إلى القضية السياسية والإنسانية الأشد إلحاحاً، وهي وقوع هذا التحامل مرتبطاً بقضايا أخرى عنصرية وجهوية وحزبية، نعم! إن وجود مخلفات تاريخية له دور بكل تأكيد في البلقان، وفي الهند، وفي المجتمع الغربي، وفي إسرائيل، لكنها لا تفسر وحدها العداء للمسلمين اليوم.

٢ ـ معاداة المسلمين يسوغها ما فعله بعض المسلمين، ولذا فمن المناسب تشخيص الطرق التي ساهم بها هذا البعض في العالم الإسلامي في هذه الظاهرة.

٣ ـ ليست معاداة المسلمين في أي من هذه الحالات هي السمة المحددة للأيديولوجيا، أو الصراع الذي تستخدم فيه، فهي ترتبط بقضايا أخرى إثنية، لون، نزاعات بين الطوائف، فساد إداري، نزاعات بين الدول.

٤ ـ أن نظرية (الإسلام دين ودولة) هي شعار فقط، وأن فصل الدين عن الدولة هو تأويل ممكن للتفكير الإسلامي، وأن تاريخ الحكم الإسلامي كان مملوءاً بالتطبيقات الواقعية، وأن صعود الحركات الإسلامية السياسية هو استجابة لمشكلات داخلية وللوصول إلى السلطة، وهذه ليست خاصة بالإسلام فقط، فهي في

أوروبا والهند وأمريكا، ولإثبات وجهة نظره يأخذ مسألة حقوق الإنسان مثالاً لذلك حيث ذكر:

ـ أن مسألة حقوق الإنسان الإسلامية هي تجريدات تشوش أكثر مما تنور، وهي تعكس اعتبارات سياسية إلى حد بعيد وتتعلق بالسلطة.

ـ أن كثيراً مما يمر على أنه إسلام إنما هو طائفة معينة من الآراء صيغت بشكل عشوائي، أو تقليد محلي بلبوس إسلامي، مثل ختان الإناث، ومواثيق الشرف القبلي.

ـ اختلاف الدول الإسلامية حول هذا الأمر، ففي الوقت الذي تطرح فيه السعودية ميثاق حقوق إنسان إسلامي؛ نجد تونس تجري وراء ميثاق حقوق إنسان كوني.

ـ ادعاء أن الشريعة هي أساس حقوق الإنسان في الإسلام باعتبارها منظومة قانونية منزلة، وأنها تشكل الأساس القانوني والدستوري للمجتمعات الإسلامية، وموضع نزاع باعتبار أن النصوص المنزلة المعنية بالأمور القانونية محدودة.

ثم يطرح هاليداي الحل من وجهة نظر العلمانية، فيشير إلى أن دور الثقافة مهم في تحديد حقوق الإنسان والديمقراطية ودعمها وصيانتها، ولذا فهناك مستلزمات ثقافية معينة لاحترام حقوق الإنسان والديمقراطية، والسؤال: لماذا لا تعالج أسباب غياب هذه المستلزمات في المجتمعات الإسلامية؟

ولذا يقترح في النهاية أن العلمانية هي الحل؛ لأنها تستبعد الدين، وتعمل العقل في الحياة الاجتماعية والقانونية، ويقول: «ليست القضية المركزية إيجاد تأويل للتفكير الإسلامي أكثر ليبرالية أو توافقاً، بل هي إبعاد المناقشة حول الحقوق عن دعاوى الدين نفسه».

وعلى أي حال فهذه الأطروحة فيها مغالطات ضخمة، وفيها رؤى منصفة في التفاصيل، أدرجناها بعد الحديث عن صدام الحضارات لبيان أن الأدبيات الغربية حافلة بالرؤى المتناقضة التي يرد بعضها على بعض، فرؤية الخرافة تقف في مقابل رؤية الصدام، كما أن رؤية الصدام تقف في مقابل رؤية نهاية التاريخ، وإن بشكل نسبي، إلا أن الشيء المهم هو أن نعلم أن هذه الرؤى الثلاث تتفق على قضية واحدة وهي أن العلمانية (الحداثة) هي التي يمكن أن يتعامل معها الغرب في العالم الإسلامي؛ باعتبار أن الإسلام ضد الحداثة، وأن استبعاد الدين عن الحياة هو الذي يحقق السلم الاجتماعي ويمنع الصدام، وهو رؤية العلمانيين في العالم الإسلامي، والذين يروجون لهذه الفكرة، وينشطون لها؛ خاصة بعد أحداث سبتمبر؛ لإعادة صياغة الإسلام ليتلاءم مع متطلبات الهيمنة الغربية وفكر خرافة المواجهة.